﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ٤٢﴾ [سبأ: 42]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

يـــومُ الحـشـر ينـجـلي الـحـقُّ ويندم الكافرون

لَمّا أبطل فيما سبق من آياتٍ تمسُّكاتِهم، وقطع عنهم تعلُّقاتهم؛ تسبَّب عن ذلك تقريعهم النّاشئ عنه تنديمُهم في يوم مخاطَبتهم بهذا التَّبكيت، وهو يوم الحشرِ، عندئذٍ لا يملكون شيئًا لبعضهم، لا نفعًا ولا ضرًّا قطعًا لجميع الأسبابِ الكائنةِ في دار التَّكليف من دار الجزاءِ، فإنَّها مقصودٌ فيها إظهارُ العظمةِ التّامَّة للّٰه وحده سبحانه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمۡلِكُ﴾: (ملك) أصلٌ يدلُّ على قوَّة في الشَّيء وصحَّة، يُقال: أملك عجينه: قوَّى عجنَهُ وشدَّهُ، وملَّكت الشَّيءَ: قوَّيته، ويقال: مَلَكَ الإنسانُ الشَّيء يملكه ملكًا، والاسم الملك؛ لأنَّ يدَه فيه قويَّةٌ صحيحة[2]، والملك: نوع مِنَ الملك - بكسر الميم - فالمِلْك جنسٌ، والمُلك - بالضَّمِّ - نوعٌ منه، وهو أعلى أنواعه، ومعناه التَّصرُّف في جماعة عظيمةٍ أو أمَّةٍ عديدة تصرُّفَ التَّدبيرِ للشُّؤون، وإقامةِ الحقوق، ورعاية المصالح، ودفع العدوان عنها[3].

2) ﴿نَّفۡعٗا﴾: (نفع) تدلُّ اشتقاقاتُه على خلاف الضُّرِّ، وكلِّ ما كان خيرًا؛ فهو نفعٌ[4]، والنَّفعُ "ما يُستعانُ بِهِ في الوصول إلى الخيرات، وما يُتوصَّل به إلى الخير؛ فهو خير، فالنَّفع خيرٌ، وضدُّه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 521 - 522.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (ملك).
(3) الراغب، المفردات: (ملك).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير: (نفع).

الضُّرُّ"[1]، ويطلق النَّفع على الفائدة التي تنال مِنَ الشَّيء، أو الجدوى التي تعودُ منه على المنتفع[2]، و﴿نَفْعًا﴾ في الآية الكريمة: كلُّ ما يُمكن أن يصلَهُم مِن خيرٍ، وأعظَمُ صورِ ذلك: الشَّفاعة[3]، فلا يرجو هؤلاءِ النّاكبون عن طريق الحقِّ أن يشفعَ لهم مَن كانوا يعبدونهم مِن دون الله تعالى.

3) ﴿ضَرًّا﴾: (ضرّ) يدلُّ على ضدِّ النَّفع، ويكون محمولًا عليه كلُّ ما قاربه من المعاني، ويأتي بمعنى سوءِ الحال في النَّفس كقلَّة العلم، أو في البدن، أو حالة ظاهرة كقلَّة المال والجاه، ومن معانيه إلحاقُ الأذى والمكروه بالمقابل، وهو يشمل المادّي والمعنوي، وأكثرُ الواردِ في القرآن الكريم هو بمعنى الضّيقِ وما يتفرَّع عنه[4]، و﴿ضَرًّا﴾ في الآية الكريمة شامِلٌ لكلِّ أنواعِ الأذى اللّاحقِ بهم، ومِنهُ: التَّعذيب[5].

4) ﴿ذُوقُواْ﴾: (ذوق) تدلُّ اشتقاقاتُه على اختبارِ الشَّيء من جهة الطَّعم، ثمَّ يُشتقُّ منه مجازًا، فإنْ نزل مكروه بإنسان؛ فقد ذاقه، وإذا نظر المرءُ في مقدار إعطاء القوس وقوَّتها؛ فقد ذاقها[6]، فالذَّوق يكون على جهةِ الحقيقةِ، ويكون على جهةِ المجاز كالتَّبكيت والتَّقريع، واستعمالُهُ للعذاب كثيرٌ في آي الذِّكر الحكيم[7]، والوارد في الآية الكريمةِ في قوله: ﴿ذُوقُواْ﴾ هوَ مِن هذا الباب؛ إذِ الأمر بالذَّوْقِ واردٌ على سبيل التَّوبيخ والتَّقريع[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في الآية بيانُ حال الكافرين يوم القيامة؛ حيث لا ينفعُهم أحدٌ، ولا يضرُّهم سوى أنفسهم، فكلمةُ اليوم تشير إلى يوم الحشرِ، ونفْيُ ملك الضرِّ أو النَّفْعِ عن بعضهم بعضًا،

(1) الراغب، المفردات: (نفع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نفع).
(3) البغوي، معالم التنزيل: 6/ 404.
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ضر).
(5) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 497.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذوق).
(7) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث، والراغب، المفردات: (ذوق).
(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 289.

يعني: انقطاعَ كلِّ الأسباب والصِّلاتِ الدُّنيويَّةِ، فلا شفاعة تنفع، ولا قوَّة تضرُّ، ثمَّ يُقال للذين ظلموا أنفسَهم بأن عبدوا غيرَ اللّهِ تعالى: ذوقوا عذابَ النّار الأليم[1].

لقاءُ الكفّارِ جزاءَ أعمالِهم

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾:

تَرِدُ الفاء كثيرًا في لسان العرب رابطةً السَّببَ بما يؤول إليه[2]، ومن ذلك ورودها في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا﴾، فهو خطابُ تقريعٍ وتوبيخ وتنديم متسبِّبٌ عن بطلان تمسُّكاتهم، وانقطاع تعلُّقاتهم[3].

إبطالُ تمسُّكاتهم وانقطاعِ تعلُّقاتهم

ويجوز أن تكون الفاءُ فصيحةً، وهي المُفصحةُ عن شرطٍ محذوفٍ، والمعنى: أنَّكم إن عبدتم الجنَّ؛ فاليوم لا يملك بعضُكم لبعضٍ نفعًا ولا ضرًّا[4].

الإيذانُ بترتُّب نفي النَّفع والضُّرِّ على عبادتهم الجنَّ

ويحتمل أن تكون جملةُ نفي النَّفع والضُّرِّ من قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾، مِن خطاب الملائكةِ للفريقين بعد أن شهدوا عليهم من باب التَّوبيخ لهم، وإظهار الغضبِ عليهم، والتأكيد لإظهار البراءةِ منهم، والفاء على هذا فصيحَةٌ أيضًا[5].

إظهارُ الغضبِ والبراءة منهم

وجائزٌ أن تكون الفاءُ الدّاخلة على اليوم في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ﴾ لإفادةِ التَّوكيد[6]، أي: إنَّ نفيَ قدرتهم على النَّفع والضُّرِّ مؤكَّدٌ في ذلك اليوم دفعًا لتوهُّم ما كان من أمرهم في الدُّنيا؛ إذ النّاس في تلك الدّار – وهي دار التَّكليف – مخلًّى بينهم، يتضارّون، ويتنافعون[7].

نفيُ قدرتهم على النَّفع والضُّرِّ مؤكَّدٌ في الآخرةِ

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 502.
(2) السيوطي، همع الهوامع: 2/ 555.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 521.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 223.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 224.
(6) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 85.
(7) الزمخشري، الكشاف: 3/ 558.

نكتةُ الحذفِ في قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا﴾ محذوفٌ، والتَّقدير: فيقال لهم: اليوم لا يملك العابدُ ولا المعبودُ بعضهم لبعض نفعًا[1]، وتنقطع كلُّ صلةٍ، ولا يجد المتضرِّعُ ملجأً، وتظهر حقيقةُ العبودية.

معنى (أل) في ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾:

معنى (أل) في لفظة ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ مِنْ قولِ الله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا﴾ دالَّةٌ على العهد، وهو يوم القيامةِ، يومُ الفصل بين العباد، ويومُ الحشر والحساب والجزاء[2].

معنى ﴿لَا﴾ في جملة: ﴿لَا يَمۡلِكُ﴾:

انقطاعُ الصِّلاتِ وحسابُ كلِّ أحدٍ منفردًا

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا﴾ نافيةٌ، وهي دالَّةٌ على انقطاع كلِّ علاقة بين النّاس يوم القيامة، فلا يملك أحدٌ أن ينفعَ، أو يضرَّ آخَرَ، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ فردٍ سَيُحاسَب على أفعاله وحده، ولا يتحمَّلُ أحدٌ ذنبَ آخر، أو ينقذُهُ مِن العقاب.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿يَمۡلِكُ﴾:

المالكُ متصرِّف في مملوكِهِ

نفيُ الملك في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُ﴾ نفيُ القدرة والاستطاعة، أي: لا يقدر بعضُكم على نفعِ بعضٍ أو ضرِّه، فالتَّركيب هنا مستعملٌ في لازم معناهُ من باب الكناية، وهذا اللّازمُ هو الملك، فالمالكُ متصرِّفٌ في مملوكِهِ كيف يشاء[3].

أثر ﴿لَا﴾ في الفعل ﴿يَمۡلِكُ﴾:

نفيُ الملكِ على النَّفع والضُّرِّ متحقِّقٌ في حالهم وهو يوم الحساب

المعهودُ في ﴿لَا﴾ أنَّها حرفٌ دالٌّ على النَّفي في المستقبل لَمن لم يكنِ الفعل واقعًا منه[4]، والمعهودُ في الفعل المضارع أنَّه دالٌّ على

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 424.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 522.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/ 154، و: 22/ 223.
(4) ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد: 1/ 20.

الحال والاستقبال بحسب سياقه، فلمّا دخلت ﴿لَا﴾ على فعل الملك بصيغتِهِ المضارعيَّة؛ كان لها أثرٌ مقصودٌ، وهو أنَّ نفْيَ الملك والقدرة على النَّفع والضُّرِّ متحقِّق في الحال التي هم عليها، وهو ذلك اليوم يوم الحساب.

معنى (اللّام) في ﴿لِبَعْضٍ﴾:

الدلالةُ على تخصيص النَّفي

اللّام الدّاخلةُ على بعض في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾؛ لإفادة الاختصاص[1]؛ إذ تعمل على تخصيصِ النَّفي هنا، فلا يشمل كلَّ المخاطَبين، بل يختصُّ ببعضِهم، فلا يملك هؤلاءِ لأنفسِهم نفْعًا ولا ضرًّا، ولا يملك لغيرِهِ ذلك أيضًا.

نكتةُ نسبةِ عدمِ النَّفعِ والضُّرِّ إلى مبهَمٍ:

المبالغةُ في بيانِ عدمِ نفعِ الملائكةِ لعابديها

نُسِبَ انتفاءُ النَّفع والضُّرِّ إلى بعضِهم على طريقة الإبهام في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، والقصدُ مِنْ هذه النِّسبة المبالغةُ في بيان عدم نفْعِ الملائكة لمن يعبدُهم بنظمِهِ في سلك عدم نفْعِ العابدين لهم، فإذا كان انتفاعُ العابدين غيرَ حاصل، فإنَّ نفْعَ الملائكةِ للعابدين محالٌ أيضًا، وأوردَ عدمَ الضُّرِّ مع أنَّه لا بحث عنهُ من باب تعميمِ العجز[2].

دلالةُ التَّعبيرِ في ﴿نَّفْعًا﴾:

بيانُ عجزِهم عن مطلَقِ النَّفع

للتَّعبيرِ بفقْدِ المقدرة على النَّفع في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا﴾ دلالةٌ على عجزِهم في ذلك اليوم[3] عن فعل أيِّ شيءٍ نافعٍ مهما كان صغيرًا نوعًا وقدرًا[4]، ولو كان نفعًا يسيرًا حقيرًا بدلالة إيرادِهِ نكرة.

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الزّري: 22/ 85.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 137.
(3) الواحدي، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 3/ 497.
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الزّري: 22/ 85.

الإشـارةُ إلى أنَّ الأمرَ لله تعالى وحده

ويجوزُ أن يكونَ معنى فَقْدِ القدرة على النَّفع في ذلك اليوم أن يكون دالًّا على أنَّهم لا يملكون الشَّفاعة[1]، أي: لا تملك الملائكةُ الشَّفاعة لمن عبدَهم من دون الله تعالى، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الأمر كُلَّهُ لله الواحد القهّار[2].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَلَا ضَرًّا﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ عاطفةٌ، فقد عطفَت نفيَ ملك الضُّرِّ على نفي ملك النَّفع[3]، ففي ذلك اليوم العظيم لا نفْعَ يُرجى، ولا ضرَّ يُخشى سوى ما قضى الله تعالى به.

معنى (لا) وتكرارها في قوله: ﴿وَلَا ضَرًّا﴾:

نـفـيُ الـقـدرةِ عـلى الـضُّـرِّ من المـخـلـوقين على وجه التَّحقيق

(لا) الدّاخلةُ على الضُّرِّ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ نافيةٌ، فهي تدلُّ على نفي القدرة على الضُّرِّ، فلا يستطيع أحدٌ أن يضرَّ الآخر مطلقًا، سواء كانَ الضَّررُ جسديًّا أم نفسيًّا، وأنَّ الله ﷻ هو القادر وحدَهُ على النَّفع والضُّرِّ، وفي تكرار حرف النَّفْيِ (لا) تأكيدٌ لنزعِ تلك القدرة عن المخلوقين، وإثباتها للخالق العظيم.

دلالةُ تنكير ﴿ضَرًّا﴾:

عـاجـزونَ عن دفـع أيِّ ضـررٍ مهما صغُر أو كبُر

نُكِّرَ لفظُ الضُّرِّ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾؛ للدِّلالة على عجزِهم في ذلك اليوم عن دفع أيِّ ضررٍ[4] عن بعضِهم بعضًا مهما كان[5]، ولو كان ضررًا يسيرًا حقيرًا.

ويجوز أن يكونَ معنى فقْدِ القدرة على الضُّرِّ في ذلك اليوم دالًّا على أنَّهم لا يملكون التَّعذيب[6]، أي: لا تملك الملائكةُ تعذيبَ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 557.
(2) الإيجي، جامع البيان: 3/ 391.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 105.
(4) السمعاني، تفسير القرآن: 4/ 338.
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 85.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 557.

الكافرين الذين عبدوهم مِن دونِ اللّه تعالى، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الأمرَ كلَّهُ للّه سبحانَهُ[1].

نكتةُ عطفِ ﴿ضَرًّا﴾ على ﴿نَّفْعًا﴾:

في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ عُطِفَ نفيُ ملكهم الضرَّ على نفي ملكهم النَّفعَ؛ للدِّلالة على سلبِ مقدرتهم على كلِّ شيء؛ خيرًا كان أو شرًّا.

نكتةُ تقديمِ النَّفع على الضُّرِّ:

التَّقديمُ لقصدِ الاهتمام

قُدِّمَ نفْيُ القدرةِ نفعًا على نفي القدرة ضرًّا في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾؛ لإفادة الاهتمام بالمقدَّم، فإنَّ المدارَ قائمٌ على الخلاص من العذاب، ورجاء الشَّفاعة، وزادَ عليه نفيُ القدرة ضرًّا من باب إكمال الأمر[2]، فإنَّهم كانوا يرجون الشَّفاعة، والنَّجاة من العذاب، ولا يرجون إلحاق الضَّررِ في ذلك اليوم العظيم.

تقديمُ النَّفع ملائمٌ لسياق المنافع المذكورة

وتقديمُ نَفْيِ النَّفعِ على نفي الضُّرِّ متناسبٌ مع سياق الآيات الوارد فيه، فإنَّه "في القربى والزُّلفى والشَّفاعة التي تعني الفائدةَ منها، والرِّزق والأموال والأولاد والإنفاق"[3].

بلاغةُ الطِّباق في ﴿نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾:

نفْيُ القدرة عمومًا بلا استثناء فيه

في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ طباقُ إيجابٍ بين نفي النَّفع ونفي الضُّرِّ[4]، وهو مفيدٌ نفي قدرتِهم مطلقًا، فلا يصدُرُ مِنْهُم نفعٌ ولا ضَرٌّ.

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لِبَعْضٍ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور على المفعول وما عُطِفَ عليه من قوله تعالى:

(1) الإيجي، جامع البيان: 3/ 391.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 522.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 22/ 85.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 23/ 304.

﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾؛ لأنَّ عامَّة النَّفع والضُّرِّ صغيرًا كان أو كبيرًا مختصٌّ باللّه سبحانه يوم القيامة خلاف ما كان في الدُّنيا؛ فقد نفع الجنُّ عابديهم ببعض المنافعِ الدُّنيويَّة، ونفع المشركون الجنَّ بخدمة وساوسهم، وفتنتِهم وإضلالهِم، وكذا الأمر بالنِّسبة إلى الضُّرِّ، فهو دنيويٌّ أيضًا[1].

صغيرُ النَّفع وكبيره مختصٌّ بالله تعالى يوم القيامة

غرضُ الخبرِ في الآية:

قول اللّه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ جملة خبريَّةٌ يُرادُ بها إعلامُ المخاطَبِ بمضمون الجملةِ على ما هو الأصلُ في الخبرِ، وضُمِّنَ هُنا أيضًا معنى التَّعريضِ بضلالِ عابدي الملائكة والجنِّ من دون اللّهِ تعالى، والمخاطَبُ المرادُ إعلامُهُ بمضمون الجملةِ هُم العابدونَ غيرَ اللّهِ تعالى الذين ظنّوا نفْعَ الجنِّ لهم، أمّا الملائكةُ؛ فعالمونَ مضمونَ الخبر[2]، فيكون إعلامُ المخاطَبِ راجعًا إلى المجموع لا إلى الجميع.

التَّعريضُ بضلال الَّذين عبدوا الملائكةَ والجنَّ

الإيجازُ بالحذف في نفي الضُّرِّ عنهم:

يجوز أن يكونَ في نفي الضُّرِّ عن العابدين والمعبودين يومَ القيامةِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ إيجازٌ بالحذف؛ فيكون المرادُ دفعَ الضُّرِّ، فهو على حذف المضافِ، أي: يوم لا يملكُ بعضُكم دفْعَ الضُّرِّ عن بعضٍ، أي: دفع الضُّرِّ عن عابديها[3].

الحذفُ من الكلام اقتصادٌ في اللَّفْظِ

دلالةُ ذِكر الضُّرِّ مع أنَّه غيرُ ذي فائدةٍ:

ذُكِر الضُّرُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ مع أنَّه غيرُ مطلوبٍ لهُم، من باب إكمال الأمر؛ ليحقِّق قطْعَ جميع الأسباب التي كانت في دار الدُّنيا، مِن دار الجزاء؛ قصدًا إلى إظهار تمامِ العظمة للّه الواحد

قطعُ جميعِ الأسباب في دار التَّكليف قصدًا إلى إظهار تمام العظمةِ لله وحدَهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 224.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 223.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 309.

القهّار من جميعِ الوجوهِ[1]، هذا على إجراء اللَّفْظِ القرآنيِّ على ظاهرِهِ من غير تقديرِ محذوفٍ.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَنَقُولُ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ عاطفة؛ فقد عطفت هذه الجملةَ على قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾[2]، وبين الجملتين توسُّطٌ بين الكمالين؛ لاشتراكِ الجملتين في الخبريَّةِ، وبينهما مناسبةٌ في المعنى؛ إذْ كلتا الجملتين في ذكرِ أحوال المشركين يوم القيامَةِ.

انقضَتِ الآجالُ وانكشفت الأسرار، فلم يبقَ إلّا الجزاءُ على الأفعال

دلالةُ القول وصوغِهِ مضارعًا في ﴿وَنَقُولُ﴾:

لمّا وقع الإخبارُ عن الحوار الذي يجري بين الملائكةِ والمشركين الذين ادَّعوا عبادتهم في ذلك اليوم؛ أردفَهُ بالتَّعبير بالقول ﴿وَنَقُولُ﴾؛ لإظهارِ أنَّهم مستحقّون هذا الحكم الشَّديد المغلَّظ؛ ولأنَّه جاء كالمعلول لقوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾[3]، وفي صوغه مضارعًا بيانٌ لِقدرته تعالى في ذلك اليوم وتلك الحالِ، فلا يكون منه إمهالٌ ولا إهمال[4]، ولتقريب صورة المحاورةِ، كأنَّه مشاهدٌ محسوس بما في ذلك إظهار حالِ بهْتِ وجوه الكافرين.

إظهارُ استحقاقِهم العذابَ الشَّديدَ

نكتةُ إسنادِ القول في ﴿وَنَقُولُ﴾:

أُسْنِدَ فعلُ القولِ في قوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ إلى الضَّمير العائد عليه سبحانه؛ للدِّلالة على القدرة الرَّبّانيَّة والعظمة الإلهيَّة[5]، وأنَّه ﷻ هو المتكلِّم الحقيقيُّ، وهو الذي

توكيدُ عظمتِهِ تعالى وحتميَّةُ عذابِ الظّالمين

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 522.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 588.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 224.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 522.
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الرّي: 22/ 85.

يخاطب الظّالمين مباشرة، فيأمرهم بتذوُّق عذاب النّارِ، وليؤكِّد على عظمته سبحانه، وعلى حتميَّة العقاب للظّالمين.

معنى (اللّام) في ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾:

خُـصَّ الظّالمون احـتراسًـا من دخول الملائكةِ في خطاب العذابِ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ دالَّةٌ على الاختصاص[1]، فإنَّ هذا القولَ هنا موجَّهٌ إلى فئةٍ خاصَّةٍ من النّاس، وهي فئة الظّالمين، فخصَّهم، وأفردهم بالخطاب؛ لأنَّه لمّا كان قوله تعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ﴾ داخلًا تحته الملائكةُ المعبودون، والمُشْركون العابدون، ففي عدم التَّخصيص يكون الأمرُ: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ممّا يعمُّ الجميع، وهو غير مرادٍ، ولذا جيءَ باللّامِ لإرادةِ التَّخصيصِ[2].

علَّةُ التَّخصيص بالموصول في ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾:

إخـراجُ الملائكةِ مـن إرادتـهـم بالوعيد

ذُكِرَ الكافرون من عُبّادِ الجنِّ بالموصول وصلتِهِ في قوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، فأورد ظاهرًا دون الإضمارِ بأن يقول: (ونقول لهم)؛ لأنَّ الملائكةَ داخلون في حيِّز قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾، إلّا أنَّهم غيرُ مشمولين بما توعَّدهم من قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ فإنَّهم غيرُ راضين عن عبادة المشركين إيّاهم، فهم خلقٌ مِن خلق الله، لا يعصونه فيما يأمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

دلالةُ التَّعبير بالظُّلم ماضيًا في ﴿ظَلَمُواْ﴾:

الـشِّـرْكُ أعـظـمُ الظُّلْمِ

استُعْمِلَ فِعلُ الظُّلمِ في قوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لأنَّ "الظُّلم وضع الشَّيء في غير موضعهِ تعدّيًا"[3]، وهذا المعنى يصدُقُ على الموصوفين تمام الصِّدْقِ، فقد وضعوا العبادةَ في غير موضعِها[4]، بأن عبدوا الجنَّ والملائكة من دونِ الله تعالى، وأمّا

(1) الرماني، منازل الحروف، ص: 50 - 51.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 212.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 503.

صوغُهُ ماضيًا؛ فلتوكيد وقوعهِ فعلًا، فيكون الحكمُ على هؤلاء قاطعًا باتًّا، وأنَّهم مُستحِقّون للعقابِ بقيام الحجَّة عليهم.

دلالةُ الذَّوقِ في الفعل ﴿ذُوقُواْ﴾:

اقترانُ الذَّوقِ بالعذاب مُستعمَلٌ كثيرًا في القرآن

الأصلُ في الذَّوق أن يكونَ دالًّا على جودة الطَّعم بالعضو المخلوقِ لذلك، وهو الفمُ[1]، غير أنَّه استعملَهُ في قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ من باب المجاز لمطلقِ الإحساسِ، وهو استعمالٌ مشهورٌ[2]، واقتران الذَّوقِ بالعذاب واردٌ على نحوٍ واسعٍ في القرآن الكريم.

تأثيرُ العذابِ على الظّالمين

وفي التَّعبيرِ بالذَّوقِ ﴿ذُوقُواْ﴾ تصويرُ عذاب النّار وشمولهِ، فكما أنَّ الطَّعام والشَّراب - المترابطين بحاسَّةِ الذَّوق - يؤثِّران على الجسد والنَّفس؛ فإنَّ عذابَ النّار يؤثِّر على كلِّ ذرَّةٍ في المشركين[3].

غرضُ الأمرِ في الفعل ﴿ذُوقُواْ﴾:

اجتماعُ العذابِ الجسدي والنَّفسي على أهل الشِّرْكِ

فعلُ الأمرِ من قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ يُقصَدُ به الإهانةُ والتَّحقيرُ، ففيه زيادةُ الإيلام للظّالمين فوق ما هُم فيه مِنَ الألم، ومضاعفة الحسْرَةِ والأسف اللَّذين يملأان قلوبَهم على ما كان من تفريطِهم وكفرهم، وترك الإيمان باللّه تعالى فيما مضى من دنياهم[4].

توبيخُ الظّالمين وتقريعُهم

والتَّعبيرُ بفعل الذَّوْقِ بصيغة الأمر بقوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ﴾ واردٌ موردَ التَّوبيخ والتَّقريع أيضًا[5]، وفيه تأكيدُ شدَّة العذابِ الذي سيلاقيه الظّالمون، وكأنَّهم سيأكلون من النّار، ويذوقون مرارتها بكلِّ حواسِّهم.

معنى (أل) ودلالة الإضافة في ﴿ٱلنَّارِ﴾:

تعذيبُ الكفرةِ بالنّار التي كانوا بها يكذِّبون

(أل) في ﴿ٱلنَّارِ﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ للعهدِ العلميِّ،

(1) الراغب، المفردات، ص: 332.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 224.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 21/ 132.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 834.
(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 285.

فالنّار مقصودٌ بها نار جهنَّم التي توعَّد اللّهُ تعالى بها الكافرين الظّالمين التي كانوا يكذِّبون بها بإنكارهم البعثَ، والنّار إنَّما تكونُ بعد البعثِ[1]، وإضافة العذابِ إلى النّار؛ لإرادة تخصيصه وتهويلِه.

دلالةُ التَّعبيرِ في قوله: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم﴾:

في التَّعبير بالموصول وصلتِه لوصف النّار الَّتي يُعذَّبون بها في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ إيذانٌ بغلطهم وذنبهم وتنديمهم؛ لِما صَدَر مِنْهُم مِنَ الكَذِب[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في الفعل ﴿كُنتُم﴾:

تكذيبُهم بالنّار والعذاب؛ لأنَّهم مجبولون مطبوعون عليه

استُعْمِلَ فعلُ الكون ماضيًا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ تكذيبَهم بالنّار والعذاب أمرٌ دائمٌ، حتَّى كأنَّهم مجبولونَ مطبوعون على ذلك[3]، وفي هذا التَّعبير ذمٌّ لهم، فإنَّ ذلك الطَّبعَ أوردهم المهالكَ.

معنى (الباء) في ﴿بِهَا﴾:

تكذيبُهم بالنّار مؤذنٌ بتمام الملابسة

من معاني الباء في كلام العربِ الملابسةُ والمصاحبة والملاصقة[4]، واسْتُعملتِ الباءُ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ لهذا المعنى، فإنَّ تكذيبَهم بالنّار مؤذنٌ بتمام الملابسة وكمال المصاحبة، وفي ذلك ذمٌّ وتعريضٌ بهم، وأنَّه ما كان ينبغي لهم أن يكونوا على هذه الصِّفةِ مِنَ التَّكذيب والإنكار.

نكتةُ تقديم ﴿بِهَا﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿بِهَا﴾ في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ على ﴿تُكَذِّبُونَ﴾؛ لإرادة الاهتمام بالمقدَّم؛ تشنيعًا للتَّكذيب به، وفي التَّقديم أيضًا رعايةٌ للتَّناسُب بين فواصل الآي[5].

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، ص: 258.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 224.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 522.
(4) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 140.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 224.

نكتةُ تعليق تكذيبهم هنا بـ ﴿ٱلنَّارِ﴾:

رؤيةُ الكفّارِ النّارَ ودخولهم فيها

في قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ علَّق التَّكذيب بالنّار نفسها، فاستعمل الاسمَ الموصولَ المناسبَ لها ﴿ٱلَّتِى﴾، ولم يعلِّق بالعذاب الذي هو مآلُ أمرِهم بما كان منهم مِن كفرٍ، وسببُ ذلك أنَّ القولَ المخبرَ عنه هنا كلامُ الله ﷻ وحكمه، وقد أَذِنَ بهم إلى جهنَّم، وشاهدوها[1].

توجيهُ المتشابه اللَّفظيّ:

دقّـــةُ الـبـيـان القرآنيّ في تنويعِ الألـفـاظِ مُراعاة لسياقاتِها

قال الله تعالى: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، وقال سبحانه: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٠﴾ [السَّجْدَة: 20]، فاختلفت الآيتانِ من جهة أَنْ جُعِل الوصف ﴿ٱلَّتِى﴾ في آية سبأٍ يعود على ﴿ٱلنَّارِ﴾، وهي مؤنَّثة، بينما جُعِلَ الوصف ﴿ٱلَّذِى﴾ [السجدة: 20] في آية السَّجدة يعود على العذاب، وهو مذكَّر.

ووجهُ ذلك أنَّ آية السَّجدة تقدَّمها ذِكرُ ﴿ٱلنَّارِ﴾ [السجدة: 20] ظاهرة في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: 20]، ثمَّ أضمرها في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: 20]، فوقعت مظهرةً مكانَ المضمرة، وليس ذلك في آية (سبأ)، فلمّا كان المضمرُ لا يوصَفُ؛ بَعُدَ عن وصف الاسم الذي حلَّ محلَّه، فهو سادٌّ مسدَّه، فجاء الوصف لما أُضيف إليه، وهو العذابُ، وهو مذكَّر، فجاء ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى﴾ [السجدة: 20]، ولمّا لم يتقدَّم ما في سورة (سبأ) ما منزلته منزلةُ المضمر؛ أورد الوصف صريحًا، فأُجري عليه بقوله: ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى﴾[2].

ووجهٌ آخَرُ في سرِّ اختلافِ التَّعبيرين: وهو أنَّهم في آية السَّجدة كانوا لابثين في النّار منذُ زمنٍ بعيد، ولم تكن رؤيتهم للنّار أوَّلَ مرَّةٍ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 224 - 225.
(2) الإسكافي، درة التنزيل: 1/ 1067.

ودليلُ ذلك قولهُ تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: 20]، فهذا هو عذابُهم المؤبَّد الذي أنكروه، أمّا آية سبأ؛ فإنَّ ذلك أوَّلُ ما رأوا النّار؛ لذكره عقيبَ الحشر والسُّؤال، فذكرَ المكذَّب به ههنا، وهو النّار[1].

ويجوز في سبب إجراء الوصف على العذاب في سورة السَّجدة، وإجرائه على النّار في سورة سبأ أنَّ آيةَ السَّجدة قد تقدَّمها قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ [السَّجدَة: 21] بما فيه تفصيلُ العذابِ وتكريره، والعذاب مذكَّرٌ؛ فتأكَّدت مناسبته للسّياق اللَّفظيِّ، فكان من المناسب عودُ الضَّمير إلى العذاب المضافِ إلى النّار؛ ليجريَ مجرًى واحدًا[2]، أمّا آيةُ سبأٍ؛ فلم يتقدَّم للعذاب وصفٌ، فكان المضاف إليه هو الجدير بالوصف؛ لأنَّه غرضُ التَّكذيب[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 213.
(2) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 404.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 522.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 46 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-99-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 46 : المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-99-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»